

عدد خاص بأعمال المؤتمر العلمي الأول لزواية الشيخ إبراهيم المحجوب العلم 15 إلى 17 مارس 2022م

## الزوايا العلمية: نشأتها، ودورها الريادي في المجتمع الليبي

د. بشير عبد الله القلعي (1)

### المقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على خاتم رسله، سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه. أما بعد: فهذه ورقة بحثية أقدمها للمشاركة في المؤتمر العلمي الأول الذي تنظمه وتشرف عليه زاوية الشيخ إبراهيم المحجوب العلمية، بمدينة مصراته، بمناسبة المئوية السابعة لتأسيس هذه الزاوية، والذي سيعقد - بمشيئة الله تعالى - خلال المدة: من: 15 إلى: 2022/3/17م، بعنوان: (زاوية الشيخ إبراهيم المحجوب العلمية: النشأة، والرسالة)، تحت شعار: (الزوايا إرث يتجدد).

وقد وفق الله تعالى القائمين على هذا المؤتمر، إلى اختيار عنوان هذا المؤتمر وشعاره، فقد توافرت الدواعي والأسباب لنشوء الزوايا العلمية والمدارس الدينية، وانتشارها في البلاد الليبية إبان تأسيس هذه الزاوية العامرة ومثيلاتها، في تلك السنين العجاف، التي تفتشت فيها الأمية والجهل، وكادت أن تطمس شعائر الدين ومعامله، وتستعجم اللغة العربية على السنة أبنائها، فكانت لتلك الزوايا ومراكز التنوير والإشعاع الديني رسالة سامية ومهمة جلييلة، أنيطت بها، وأسندت إليها، فقامت بها خير قيام، وهي إرث نفيس، وصل إلينا من الآباء والأجداد، فحق لنا أن نتلقى هذا الإرث الطيب الأصيل المتجذر في ثقافتنا، ونحتفي به، ونعرف بمجهود أهله، وحق لهذا الإرث أن يتجدد عبر الأجيال، ويستقر ويستمر فينا؛ فإن للزوايا العلمية الصوفية خطابها الديني المميز في الثقافة الليبية، التي تجذب وتحرص على الوسطية والاعتدال في العقيدة والفكر والسلوك، وكانت الزوايا هي المعادل الحضارية العتيدة، والقلاع الحصينة، التي وقفت سداً منيعاً في وجه مخططات الاحتلال الأجنبي، ومحاولات التغريب، وحافظت على مقومات الهوية الوطنية ومكوناتها الأساسية، المتمثلة في الدين الإسلامي وتعاليمه، واللغة العربية وآدابها، وكانت الزوايا بتعاليمها القرآنية وتربيتها الروحية، مدرسة تربوية علمية، حافظت قدر الإمكان على قيم الشعب الليبي، وأفكاره وأصالته، وقاومت الوجود الاستعماري بشتى صوره وأشكاله: العسكرية والثقافية، والفكرية، فلا يجوز

1. عضو هيئة التدريس بكلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الأسمرية الإسلامية.

لنا ولا يليق بنا أن ننكر فضل تلك الزوايا، التي كانت متناثرة، تشع كالنجوم في القرى والمدن والأرياف، وفي أقاصي الصحراء المترامية الأطراف، وهي تعمل في صمت وخفاء بإمكاناتها المتواضعة، وتُعدُّ الأجيالَ القرآنيَّةَ داخل تلك القلاع العتيقة، المحصَّنة بالقرآن والإيمان، ففي تلك القلاع المنعزلة في الجبال والأرياف الهادئة البعيدة عن الضوضاء والصخب كان أبناء ليبيا يحفظون القرآن الكريم، ويتعلمون علوم دينهم ولغتهم وشريعتهم، على أيدي مشايخ ربَّاهم القرآن الكريم، وهذَّبهم الإسلام الحنيف.

وقد كانت رسالة الزوايا ومهمتها النبيلة، تتمثل في المحافظة على تعاليم الإسلام وعلومه، واللغة العربية وآدابها، والحرص على صيانة عقيدة المسلم، وحمايتها من الزيغ والانحراف، عن طريق تربية الناشئة وتحصينهم، ونشر الوعي الديني في أوساط الناس في المدن والقرى، والتركيز على تحفيظ القرآن الكريم وتدرّيس علومه، والعناية بدراسة العلوم الإسلاميَّة واللغويَّة، بالإضافة إلى ما تقوم به من خدمات اجتماعيَّة أخرى، كإطعام الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، ومساعدة المحتاجين، وإصلاح ذات البين، وغيرها من الخدمات والوظائف المختلفة، التي تؤدِّيها الزاوية في المجتمع المحيط، وسنأتي على ذكرها فيما بعد؛ لهذا اخترت الكتابة عنها، والتعريف بها، والتنويه بمجهود أهلها ومشايخها والقائمين عليها، فجاءت مشاركتي بعنوان: (الزوايا العلميَّة: نشأتها ودورها الرياديّ في المجتمع الليبي).

وسأتناول هذا الموضوع بإيجاز في المبحثين الآتيين، وما يندرج تحتهما من مطالب، وذلك وفق الآتي:

المبحث الأول: نشأة الزوايا العلميَّة في ليبيا، فيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مصطلح الزاوية في الغرب الإسلامي عموماً، وفي ليبيا خصوصاً.

المطلب الثاني: تاريخ نشأة الزوايا والرُّبط في بلادنا.

المطلب الثالث: أشهر الزوايا العلميَّة في بلادنا.

المبحث الثاني: الدور الرياديّ للزوايا العلميَّة في بلادنا، فيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: تحفيظ القرآن الكريم وعلم التجويد والقراءات القرآنيَّة.

المطلب الثاني: تدريس علوم الشريعة الإسلاميَّة.

المطلب الثالث: فض المنازعات، وعقد المصالحات

المطلب الرابع: الجهاد المسلح دفاعاً عن الدين والوطن.  
وأخيراً: خاتمة البحث ونتائجه، قيدت فيها ما خلصت إليه من نتائج، وما تضمنته رؤيتي  
وتوصياتي بالخصوص.

وهذا أوان الشروع في المقصود، وتفصيل القول في الموضوع بما يتسع له المقام، مستمداً  
من الله العون والتوفيق.

### المبحث الأول: نشأة الزوايا العلمية في ليبيا:

المطلب الأول: مصطلح الزاوية في الغرب الإسلامي عموماً، وفي ليبيا خصوصاً:

الزاوية لغة: مصدر، وهي مأخوذة من الفعل: "زوى، وانزوى"، بمعنى: ابتعد، وانعزل،  
والزاوية في الأصل: ركن البناء؛ لأنها جمعت بين قطرين، وضمت ناحيتين منه<sup>(1)</sup>.

ثم تطوّر معناها وأصبحت تطلق ويراد بها المكان الذي يأوي إليه الزهاد والمتصوفون  
والفقراء، وتطلق أيضاً على المصلى، وعلى المسجد الصغير غير الجامع ليس فيه منبر.

وسميت بذلك؛ لأنّ الذين فكّروا في بنائها أول مرة كانوا من المتصوفة والزهاد والمرابطين،  
وقد اختاروا الانزواء بمكانها، والابتعاد عن صحب العمران وضجيجها؛ طلباً للهدوء  
والسكينة، اللذين يساعدان على التأمل والرياضة الروحية، ويناسبان جو الذكر والعبادة،  
وهي من الوظائف الإسلامية التي من أجلها وجدت الزاوية<sup>(2)</sup>.

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به الزوايا في الغرب الإسلامي عموماً، وتسمى أيضاً:  
(الرباط)، ولكن الرباط، يُنشأ في الغالب على السواحل البحرية لغرض الحراسة، ورصد  
العدو الغازي والتصدي لقراصنة البحر.

وبمرور الوقت تطور مفهوم الزاوية وتكوينها العمراني، وأصبحت مؤسسة دينية قائمة بذاتها،  
منفصلة عن معنى المسجد بمفهومه الاصطلاحي، تستقبل الطلاب وتقوم بتحفيظ القرآن  
الكريم، وتدرّس العلوم الشرعية والعربية، فأقبل الناس عليها، وزاد روادها، وألحقت بها  
غرف وخلاوي عديدة لسكنى الطلبة، ومخازن لتخزين المؤن والأزواد، ومرافق خدمية  
أخرى، فصارت توفّر الإقامة المجانية للطلبة الدارسين بها، وتقدم لهم الطعام، وتمد يد العون

1. المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، حرّره: إبراهيم مصطفى وآخرون، مادة: (ز. و. ي): 408.

2. ينظر: الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر، لصلاح مؤيد العقبي: 301.

والمساعدة للفقراء والعباد والزهاد، الذين يقصدونها، وبها - أيضا - غرف مخصصة لضيوف الزاوية، وللحجاج والمسافرين، والمنقطعين من أبناء السبيل<sup>(1)</sup>.

وبذلك صار لها معناها الاصطلاحي، واستقر مفهومها عند الناس، فحبسوا عليها الأحباس؛ لتمويلها واستمرارها في تأدية رسالتها، وأصبحت الزاوية تعرف بأنها: مؤسسة تربوية وتعليمية مختصة بتحفيظ القرآن الكريم، وتعليم العلوم الإسلامية والعربية، وتربية المريدين على مكارم الأخلاق.

ونحن إذا ذكرنا الزوايا العلمية الصوفية، ونوهنا بدورها الرائد في المجتمع، فإننا نعني بذلك الدور الرائد الذي نهض به مؤسسوها الأوائل، وشيوخها الأجلاء والقائمون عليها، من أهل التصوف الإسلامي الصادق، الذين كان لهم حضور فعال في مجتمعاتهم، ملأ جميع نواحي الحياة بالخير والصلاح والنهضة الشاملة، في مجالات: الدعوة للإسلام، ومكارم الأخلاق، وتجسيد القدوة الحية والأسوة الحسنة بين أبناء المجتمع، وتربية الناشئة، والعمل المثمر، والجهاد في سبيل الله، فلا يخفى على أحد الدور الذي قام به رجال التصوف المخلصون في بلادنا في أحلك ظروفها الاجتماعية والاقتصادية.

### المطلب الثاني: تاريخ نشأة الزوايا والربط في بلادنا:

تعد المحارس الجهادية والرباطات الصوفية على طول الساحل الشمالي لبلادنا أقدم في وجودها من الزوايا الصوفية بمعناها الاصطلاحي - الذي سبق ذكره -، بل إن بعض الرباطات هي التي تطورت فيما بعد، وأضيفت إليها مهام أخرى، حتى أصبحت زوايا صوفية ومدارس دينية، يقصدها الزهاد والعباد للرباط في سبيل الله، وحراسة الثغور من هجمات النصارى، وأيضا لحفظ القرآن الكريم وطلب العلم في أوقات مناوبات الاستراحة. ويعد رباط طرابلس الذي أسسه الوالي العربي هرثمة بن أعين، سنة: 181هـ، الموافق: 798م، هو أقدم الرباطات في المغرب العربي، ثم تألف عقد طويل من الرباطات على

1. ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة: نخبة من أساتذة الجامعات المصرية والعربية: 5240/17.

طول الساحل الليبيّ من الحدود التونسية غرباً إلى الإسكندرية شرقاً، ولا يبعد الواحد عن الآخر إلا مسافة حوالي ستة كيلومترات تقريباً<sup>(1)</sup>.

وعندما أسست طرابلس الأربطة البحرية على طول الساحل لحماية الثغور من هجمات أساطيل الأعداء، أسست - أيضاً - الأربطة الصحراوية؛ لحماية الثغور البرية، من هجمات الأفريقيين، لكن الرباط لم يكن حصناً دفاعياً أو هجومياً فقط، ولم يكن منطقة أمان وسياج حراسة وحسب، بل كان مركز إشعاع للعلوم الشرعية، والثقافة الإسلامية العربية، فمن حيث هو معهد تعليم ودار كتب، ومصنع للورق، لعب دوراً أساسياً في تثقيف الأفريقيين في الدين واللغة، وسرعان ما أسست حول الرباط مدن؛ لتمكين الطلبة وأهاليهم من أسباب العيش الكريم، فصار الرباط مدينة علم<sup>(2)</sup>.

والذي أودُّ قوله والتذكير به في هذا المقام: أنّ الاختلاف في ضبط تاريخ محدد لنشأة الربط والزوايا العلمية وظهورها وانتشارها في بلادنا هو اختلاف يتلاشى في مسألة الوظائف التي مارستها وقامت بها زوايانا خير قيام، بمجهودات يسيرة، ودعم أهلي محدود، في وقت كان الناس فيه أشد ما يكونون احتياجاً إلى من يقدم إليهم رغيف خبز أو حفنة شعير، أو يعلم أبناءهم حرفاً من كتاب الله، أو يبين لهم حكماً شرعياً في عباداتهم ومعاملاتهم، وقد تفتش الجهل بينهم، فلا خلاف في أنّ الزوايا كانت دور تعليم وضيافة وتصوف وعبادة وعمل، وأماكن نسخ للمصاحف الشريفة، ومختلف المخطوطات العربية.

ويعدُّ تعليم الزوايا أعلى مستوى في الدرجة من تعليم الكتّيب، ويمكن موازنته بالتعليم الثانوي الحالي، وخريجو الزوايا يتقلّدون الوظائف، ويقومون بمهمة الدعوة إلى دين الإسلام، في الجبال والصحارى، ويقومون - أيضاً - بالتعليم في الكتّيب، ويباشرون الوعظ والإرشاد في المساجد، وبين أهل القبائل، ويرجع إلى كثير من خريجي الزوايا الفضل في نشر الإسلام في قلب أفريقيا، وفي تعليم اللغة العربية بين كثير من الأفريقيين، وقاموا بدور أساسي في مواجهة الزحف الاستعماري على القارة الأفريقية<sup>(3)</sup>.

1. ينظر: تطور التعليم في ليبيا في العصور الحديثة، لرأفت غنيمي الشيخ: 91.

2. المصدر السابق: 92.

3. تطور التعليم في ليبيا في العصور الحديثة، لرأفت غنيمي الشيخ: 96.

أما من حيث المعنى الاصطلاحي للزاوية الذي عرفت به واستقر معناه في أذهان الناس، فإنَّ أول زاوية ظهرت وعرفت في بلادنا هي الزاوية القادرية في المدينة القديمة بطرابلس قرب جامع الناقة، فهي تعدُّ أول زاوية قادرية في طرابلس الغرب، ويطلق عليها أتباع الطريقة القادرية: "فردوس الذاكرين"<sup>(1)</sup>، وهي مازالت قائمة حتى الآن، وهذه الزاوية تنسب إلى الطريقة القادرية التي أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني: (ت: 561هـ: 1166م)<sup>(2)</sup>، وهي من الطرق الصوفية المنتشرة في العالم الإسلامي، وقد دخلت إلى بلادنا منذ أمد بعيد، عن طريق الشيخ: أبي مدين شعيب ابن الحسين المغربي الأندلسي: (ت: 593هـ: 1197م)<sup>(3)</sup>، الذي أخذ الطريقة القادرية على يد مؤسسها الشيخ: عبد القادر الجيلاني عند لقاءهما في موسم الحج بمكة المكرمة، وجلس بين يديه، ولقَّنه أورادها وأحزابها، وسمع منه مروياته، وأجازته إجازة عامة تامة على طريقة أهل الشأن<sup>(4)</sup>، وعند عودته من بلاد الحجاز توقَّف في طرابلس بمنطقة الفيندقة بالمدينة القديمة، وأخذ ينشر هذه الطريقة، ويلقِّن أورادها لتلاميذه، وذلك منذ منتصف القرن السادس الهجري، الموافق للثاني عشر الميلادي<sup>(5)</sup>، ثمَّ أسست في هذا المكان أول زاوية قادرية في طرابلس الغرب<sup>(6)</sup>.

وبمرور الزمن انتشرت زوايا الطريقة القادرية في مناطق أخرى من طرابلس، وفي غيرها من مدن بلادنا، وتخرَّج فيها مشايخ مجازون، أصبح لهم تلاميذ يترددون عليهم، وينتسبون إليهم؛ لحفظ القرآن الكريم، وتلقي دروس العلم الشرعي، والترقي في مدارج التربية الروحية وتهذيب الأخلاق، يقول جمعة الزريقي: "ذكر لي من أثق به وجود عدد

1. منح رب العالمين في مناقب شيخنا الأمين: أحمد محمد بن حمادي، دراسة وتحقيق: بشير عبد الله القلعي: (رسالة ماجستير غير منشورة): 18.

2 - بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني، لعل الشطنوفي، دراسة وتحقيق: جمال الدين الكيلاني: 127.

3. ينظر: طبقات الأولياء، لسراج الدين عمر بن علي الشافعي المصري المعروف بابن الملحق، تحقيق: نور الدين شريعة: 437، وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد بن محمد مخلوف: 236/1.

4. ينظر: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقرئ التلمساني، تحقيق: د. إحسان عباس: 138/7.

5. ينظر: سلطان الأولياء عبد القادر الجيلاني، لأحمد الزوي: 97.

6. ينظر: المجتمع الليبي في العهد العثماني، لتيسير بن موسى: 82.

من الزوايا القادرية في بنغازي ومصراتة وغدامس، ولا يستبعد وجود مثل هذه الزوايا في عدة أماكن أخرى من بلادنا<sup>(1)</sup>.

وقد اشتهر عدد من منتسبي الطريقة القادرية في طرابلس الغرب، وفاقوا أقرانهم علماً وفضلاً، حتى صاروا معروفين بين الناس بعلمهم وصلاتهم، وانتفع بهم أبناء المسلمين في حفظ القرآن الكريم، وتلقي العلم والتربية وصلاح الباطن، وقد ترجم الدكتور جمعة الزريقي لعدد منهم في كتابه: (بعض أعلام الزاوية القادرية في طرابلس الغرب)، ومن أشهرهم: الشيخ: محمد الأمين العالم، والشيخ: علي أمين سيالة، والشيخ: محمد بن علي الشريف زغوان، والشيخ: أحمد محمد ابن حمادي، وغيرهم، - رحمة الله عليهم جميعاً -.

وفي القرنين الثامن والتاسع الهجريين وما يليهما، انتشرت الزوايا بكثرة في بلاد المغرب العربي عموماً، وفي ليبيا خصوصاً، وسأذكر عدداً منها، وأسماء مؤسسيها من أهل العلم والصلاح في بلادنا، وكيف شرعت في تأدية دورها الرائد في المجتمع الليبي، على أيدي مشايخها ومقدمي تلاميذهم.

### المطلب الثالث: أشهر الزوايا العلمية في بلادنا ليبيا:

إنَّ الزوايا العلمية والمدارس الدينية التي كانت منتشرة في طول البلاد الليبية وعرضها لا يمكنني أن آتي على ذكر جميعها، وحصرتها في هذه العجالة؛ ومن ثمَّ فسأقتصر على ذكر عشر زوايا منها، تعدُّ مثالاً وأ نموذجاً لغيرها من الزوايا، ومراكز الإشعاع العلمي في بلادنا؛ لاضطلاعها بأدوارها العلمية والتربوية والاجتماعية الرائدة في المجتمع الليبي، فما يقال عن واحدة منها، يقال عن غيرها، من حيث إنَّها تشترك في غايات نبيلة موحدة، وأهداف جليلة متطابقة، هي: تحفيظ القرآن الكريم، ونشر العلم الشرعي بين المسلمين، وتربية الناشئة على الفضائل، والقيام بدورها الاجتماعي.

وقد راعيتُ في هذا الاختيار تعدُّد مناطق بلادنا ومدنها، شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، وتلك الزوايا العلمية والمدارس الدينية الآتي ذكرها بعضها لا يزال قائماً حتى اليوم، تؤدي رسالتها، وبعضها أتت عليه حوادث الدهر، وجرت عليه سنة الفناء والدثور، فأصبحت أثراً

1. حادي العقول إلى بلوغ المأمول، لأحمد بن محمد بن حمادي، تحقيق جمعة الزريقي، القسم الدراسي: 36.

بعد عين، ولكن مآثر رجالها لا تزال خالدة في ذاكرة التاريخ، حيث سُطرت آثارهم، وكتبت مناقبهم بأحرف من نور في بطون الكتب، وتناقلتها الأجيال بالرواية الشفهية.

وفيما يلي أذكر تلك المدارس والزوايا العلمية، مبتدئاً بأقدمها تاريخياً وتأسيساً:

1. المدرسة المستنصرية: كانت هذه المدرسة التي يمكن أن نسميها معهداً دينياً، تُعنى بتحفيظ القرآن الكريم، وتدرّس علومه الشرعية، وخاصة الفقه المالكي، وقد أسسها الفقيه الليبي عبد الحميد بن أبي الدنيا، سنة: 656هـ، وجاء ذكرها في عديد المصادر القديمة والحديثة، حيث ذكرها أحمد التيجاني في رحلته، ووصفها بأنها أحسن مدارس طرابلس<sup>(1)</sup>، وقال روبرار برنشفيك عن هذه المدرسة بأنها: "أقدم مدرسة مالكية في شمال أفريقيا"<sup>(2)</sup>، ولكن هذه المدرسة عفى عليها الزمن، وأصبحت أثراً بعد عين.

2. زاوية المحجوب بمصراتة: أسسها الشيخ: إبراهيم بن محمد المحجوب، سنة: 742هـ، الموافق: 1341م، لتحفيظ القرآن الكريم وتدرّس الفقه وعلوم اللغة<sup>(3)</sup>، واستمرت منذ ذلك التاريخ في القيام برسالتها وتأدية دورها الريادي في مجتمعها المحيط بها، والمجتمع الليبي عموماً، وها هي اليوم تحتضن هذا اللقاء العلمي الأخوي بمناسبة المئوية السابعة لتأسيسها، زادها الله عمراً وتلقاً، وبارك في جهود القائمين عليها، وكل من يعدُّ وينسب إليها، من مشايخها وتلاميذها.

3. مدرسة أبي راوي بتاجوراء: أسسها القائد العثماني مراد آغا، في نهاية القرن التاسع الهجري، ثم تولى تجديدها الشيخ: محمد أبو راوي الدوفاني، وتولى التدريس بها مدة طويلة حتى نسبت إليه، وعرفت باسمه، ثم تولى تعميرها بالحفاظ عليها والتدريس فيها من بعده تلاميذه من آل النعاس وغيرهم<sup>(4)</sup>، وهي لا تزال قائمة حتى الآن.

1. ينظر: رحلة التيجاني، لأبي محمد عبد الله التيجاني، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب: 252.

2. تاريخ أفريقيا في العهد الحفصي، لروبار برنشفيك، ترجمة: حمادي الساحلي: 304/2.

3. ينظر: معجم البلدان الليبية: 167، وأعمال الندوة العلمية: الكاتيب والزوايا وأعلام تحفيظ القرآن الكريم: 131، وما بعدها.

4. ينظر: المنارات الشرعية ودورها في ترسيخ الإسلام وتحصين الشباب، لبشير عبد الله القلعي، مجلة الاسمية العدد:

(5): 2005م: 615.

4. الزاوية الأسمريّة بزليتن: أسسها الشيخ العابد الزاهد الصوفي عبد السلام الأسمري الفيتوري الحسني، سنة: 912هـ: 1506م<sup>(1)</sup>، وهي من أشهر الزوايا في بلادنا، وتعرف باسم: (زاوية الشيخ)، ومهمتها تحفيظ القرآن الكريم، وتعليم العلم الشرعي واللغة العربيّة، وبها قسم داخلي لسكني الطلبة، وبها خلوة لعقد حلقات الذكر وتربية المريدين.

وقد توسّع التعليم بها، حتى أصبحت معهداً دينياً، يُعرف إلى وقت قريب باسم: (المعهد الأسمري)، قبل قفله وإيقاف الدراسة به في ثمانينيات القرن الماضي، وقد أعيد افتتاحه - بفضل الله - من جديد باسم: (الثانويّة الدينيّة).

ثم أنشئت في رحاب هذه الزاوية الجامعة الأسمريّة الإسلاميّة بكلياتها العديدة المتنوعة. ولا تزال هذه الزاوية منذ ما ينيف على خمسة قرون تؤدي مهمتها، وتنهض برسالتها، ولها دورها الريادي في المجتمع الليبي، بل تخطت شهرتها حدود بلادنا، فقصدتها الكثيرون من داخل ليبيا وخارجها؛ لحفظ القرآن الكريم، وتلقي العلوم الشرعيّة والعربيّة بها.

5. زاوية أبي ماضي: أسسها الشيخ المريني: عبد النبي الأصغر بمنطقة ككلة بالجبل الغربي، في القرن التاسع الهجري، وقد عرفت باسم: (الأزهر الصغير)؛ لكثرة روادها والقاصدين إليها؛ لحفظ القرآن الكريم، وتلقي العلم<sup>(2)</sup>، إضافة إلى الأدوار الاجتماعيّة الأخرى التي قامت بها.

6. الزاوية البيضاء: أسسها الشيخ: محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني، سنة: 1257هـ: 1840م، وكانت مركز إشعاع في تلك المنطقة وما حولها، وقد خربها الطليان بعد احتلالهم الغاشم لبلادنا، ثم جددّها الملك إدريس، سنة: 1372هـ: 1952م، وقد تطور التعليم بها إبّان تلك المرحلة حتى أصبحت معهداً دينياً، ثم صدر مرسوم ملكي بتاريخ: 1961/10/29م، بإنشاء جامعة إسلامية، تسمّى: (جامعة السيد محمد بن علي السنوسي

1. ينظر: معجم البلدان الليبية، للطاهر أحمد الزاوي: 165، وما بعدها.

2. ينظر: الحياة العلمية في الجبل الغربي، عبد الحميد الهرامة، مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول: يناير: 1984م: 135.

الإسلامية)، يكون نواتها معهد السيد محمد بن علي السنوسي الديني، ومقرها مدينة البيضاء، ولها شخصية اعتبارية مستقلة<sup>(1)</sup>.

7. زاوية الدوكالي بمسلاطة: هي زاوية قديمة جدا، مؤسسها الأول هو الشيخ: عبد الله الدوكالي، جد الشيخ عبد الواحد الدوكالي<sup>(2)</sup>، الذي صار أشهر مشايخها، وفي عهده اشتهرت الزاوية، وذاع صيتها، وتقاطر عليها طلاب العلم من مسلاطة ومن مختلف مدن ليبيا؛ لحفظ القرآن الكريم، وتلقي العلم، ومن أشهر طلابها في ذلك العصر الشيخ: عبد السلام الأسمر الفيتوري، والشيخ: أحمد زروق الفاسي، وما زالت بها خلاوي للسكنى، عرفت باسميهما ونسبت إليهما.

8. زاوية الجغبوب: الجغبوب واحة صغيرة، تقع في منخفض صحراوي جنوبي طبرق، تحيط بها صحراء قاحلة، وكانت قبل الاحتلال الإيطالي مركزا كبيرا للطريقة السنوسية، وبنيت بها زاوية سنوسية كبيرة، تم الفراغ من بنائها سنة: 1273هـ: 1856م، وسميت زاوية الأستاذ؛ نسبة إلى الأستاذ الشيخ: محمد بن علي السنوسي، واشتهرت بتحفيظ القرآن الكريم، وتدریس العلوم الدينية والعربية، وقد كثر السكان بها، واتسع عمران البلدة، وامتد خارج أسوارها<sup>(3)</sup>. يقول الشيخ الطاهر الزاوي عن زاوية الجغبوب وأثرها الديني: "إنها كانت في زمن السيد: محمد بن علي السنوسي، والسيد: المهدي السنوسي مركز إشعاع علمي وثقافي، ومنبع دعوة إسلامية مهبذة صحيحة، جددت من آثار الإسلام ما اندرس منها في حقب طويلة توالى على صحراء برقة، كانت السيادة فيها للجهل والفقر والفضى...، أما بعد استقلال ليبيا فقد أصبحت زاوية الجغبوب معهدا علميا يؤمُّه طلبة العلم من كل الجهات، ويصرف عليه من خزانة الدولة الليبية ما يوفر للطالب الراحة؛ لينصرف إلى طلب العلم، وللمدرسين الكفاية؛ ليتفرغوا المهمة التدريسية، وأنشئت فيها مساكن تليق بمقام العلم والمتعلم"<sup>(4)</sup>.

1. ينظر: مرسوم ملكي صادر عن ملك ليبيا، السيد: محمد إدريس السنوسي، منشور على الموقع الرسمي لجامعة محمد بن علي السنوسي الإسلامية، بمدينة البيضاء الليبية.

2. ينظر: أعمال ندوة: الكاتيب والزوايا: 52.

3. ينظر: معجم البلدان الليبية: 104.

4. ينظر: معجم البلدان الليبية، للطاهر الزاوي: 107.

9. زاوية السنِّي بمزدة: أسسها الشيخ: عبد الله السني سنة: 1261هـ: 1845م؛ لتكون مركز إشعاع ديني بين طريق القوافل، وسكان القبلة<sup>(1)</sup>، ولم يكن دور هذه الزاوية مقتصرًا على الناحية التعليمية فحسب، بل كانت مرجعًا للمستفتين، وملاذًا للمتحاكين، تُعقد فيها عهود الصلح بين المتخاصمين، ويضطلع علماءؤها بأدوار اجتماعية قيمة، من خلال التوفيق بين القبائل، والدعوة إلى وحدتها ونبد خلافاتها<sup>(2)</sup>.

10. زاوية الكانمي: تقع في منطقة مرزق بالجنوب الليبي، وقد تحدث عنها المستشرق المسلم أسد الدين جرّها، قائلا: "إنَّ أثر زاوية الكانمي في منطقة غرب أفريقيا من القوة والأهمية بمكان، وإنَّ بعض علماء غرب أفريقيا المبرزين في تلك الآونة كانوا تلامذة وأساتذة بهذه الزاوية"<sup>(3)</sup>.

إلى غير ذلك من تلك الزوايا الصوفية العلمية، ومراكز الإشعاع الديني في بلادنا التي تفوق الحصر، كلها كانت تؤدي رسالتها العلمية والتربوية، وتضطلع بأدوار رائدة في المجتمع الليبي، تمثلت في مناشط عديدة، ووظائف وأعمال تنموية، ملموسة في الواقع المعيش للناس، ينتفعون بمزاياها، وسأتي على ذكر بعض هذه الأدوار في المبحث التالي.

### المبحث الثاني: الدور الريادي للزوايا العلمية في بلادنا:

#### المطلب الأول: تحفيظ القرآن الكريم، وعلم التجويد، والقراءات القرآنية:

إنَّ الزوايا العلمية التي ذكرتها في هذا البحث وغيرها كثير مما لم أت على ذكره؛ لضيق المقام، كلها تشترك في مهمتها، وتتحد رسالتها السامية في هذا المقصد الشريف، ألا وهو دعوة مشايخ الزوايا للأهالي المجاورين لها ومحيطها إلى توجيه أبنائهم للانخراط في حلقات حفظ القرآن الكريم واستظهاره، لمن يرتاد زواياهم من أطفال ومريرين وطلبة.

1. ينظر: الجواهر الإكليلية في أعيان علماء ليبيا من المالكية، لناصر الدين محمد الشريف: 295.

2. ينظر: المنارات الشرعية ودورها في ترسيخ الإسلام وتحصين الشباب، لبشير عبد الله القلي، مجلة الأسمرية، العدد:

(5)، 2005م: 619.

3. المرجع السابق: 620.

ففي العادة يلتحق التلاميذ بالكاتب والزوايا العلمية في سن الرابعة فما فوق، وأول ما يتعلمه التلميذ الحروف الهجائية: (أ، ب، ت ... إلخ)، وتكون دراسته لها على ثلاثة مراحل<sup>(1)</sup>:

الأولى: يتعرف فيها التلميذ على أشكال الحروف، ويحفظها لفظا بالتلقين مشافهة.

الثانية: يحفظ نقاطها: ألف لا شيء عليه. الباء نقطة من تحت. التاء اثنين من فوق، وهكذا بقية الحروف الهجائية.

الثالثة: يتعلم فيها كيفية نطق الحرف عند وضع العلامات عليه: (الحركات، أو الشَّكْل)، مثل: ألف: بالفتحة: (آ)، بالخفضة: (إي)، بالضمّة: (أو)، بالسكون: (أ). الباء: بالفتحة: (بَا)، بالخفضة: (بِي)، بالضمّة: (بُو)، بالسكون: (أَب) إلخ.

أدوات الكتابة: ثم يصل التلميذ إلى مرحلة تحضير أدوات الكتابة، وهي<sup>(2)</sup>:

1. اللوح: يصنع من الخشب المحليّ من شجر الأثل، أو الطلح، أو الزيتون، أو مما يجلبه التجار من أفريقيا، وهي ألواح صقيلة جيدة، أفضل من الألواح المصنوعة من الشجر المحلي، وتختلف أحجامها باختلاف أعمار الطلاب.

2. المداد: يحضّر من بعض أصواف الضأنّ مما ينبت تحت بطنها، أو في أسفل أرجلها، فهذا النوع من الصوف يسمى: (الودك)، ويسمى: (الصمغ)، يتم تجميّعه في موسم الجزّ، ويحتفظ به لهذا الغرض، حيث يؤخذ منه قدر القبضة، ويشوّط بالنار، ثم يغمر بالماء في إناء، ويطنخ على النار، ويترك حتى يتحلّب منه سائل أسود شديد التركيز، فيصفّى، ويوضع في المحبرة: (الدواية)، وتُحشَى فيها صوفة نظيفة؛ حتى لا يعلق منه الكثير بالقلم عندما يغمس فيه، وبذلك يصبح جاهزا لاستخدامه في الكتابة على الألواح.

3. القلم: يصنع من ساق نبات خاص، يسمى: (القصبية)، وهو نبات له ساق طويل مجوّف، مقسّم بسلاّميات أو عُقد، حيث يقطّع النبات، ويوضع في الشمس حتى يجف، ثم يشقّ طولياً نصفين، ويبرّى، وتحدّد حوافه على شكل ريشة قلم الحبر السائل تماما،

1. ينظر: أعمال ندوة الكاتب والزوايا: 374.

2. ينظر: أعمال ندوة الكاتب والزوايا: 374.

ويغمس في المحبرة كلها أراد التلميذ الكتابة به على اللوح، وقد استُخدم هذا النوع من الأقلام منذ أقدم العصور في الكتابة على الرق، وأوراق البردي، ثم على الورق العادي المعروف فيما بعد.

**مرحلة الكتابة:** ثم يصل التلميذ إلى مرحلة الكتابة، وتكون بدايتها بتعليمه كيفية الإمساك بالقلم، ثم يقوم الفقيه برسم الكلمة بمؤخر القلم من دون حبر، فترسم الكلمة على اللوح بنقاط مشرشرة تعرف: (بالرشيمة)، وعلى التلميذ أن يصل بين هذه النقاط بدقة تامة؛ حتى يتعود على الكتابة بشكل جيد، ويتدرج من كتابة الكلمة، إلى كتابة الآية، فكتابة السورة عندما يصل إلى مرحلة الملاء: (الملة).

**الملاء: (الملة):** يتخلق التلاميذ حول الفقيه الذي يقوم بالإملاء على كل تلميذ على حده، ومع أن التلاميذ تكون بدايتهم واحدة إلا أنهم يتفاوتون فيما بعد، فهناك من يحفظ بسرعة، وهناك من هو دون ذلك، من المستوى المتوسط، أو الأدنى البطيء، والفقيه يراعي هذه الفروق والمستويات المتفاوتة في التلقي والحفظ، ويملي على كل تلميذ على حده على حسب مستواه، وما وصل إليه من الآية أو السورة، وعلى التلميذ أن يردد كل كلمة يملئها عليه الفقيه، حتى يتأكد الأخير من وصول الكلمة واضحة للتلميذ، ويتكرر هذا المشهد التعليمي التربوي، وهذا النظام المنضبط، حيث يذهب التلاميذ إلى الزاوية أو الكتاب أو المحضرة أو مركز التحفيظ، كل صباح مع شروق الشمس، يباشرون قراءة ألواحهم إلى أن يلتحق بهم الفقيه، ويطلب منهم أن يعرضوا ما حفظوه، فكل تلميذ يتمكّن من حفظ ما قرّر عليه في اليوم السابق يسمع من الشيخ عبارات الثناء والشكر، وينصرف نحو لوحه، وتهيئته للكتابة التالية. أما من لم تسعفه ذاكرته في الحفظ، فيسمع عبارات اللوم والتوبيخ من الشيخ، ولا يحو لوحه إلى أن يتقن حفظه<sup>(1)</sup>.

ويحرص الشيخ أثناء الإملاء على أن يلقّن التلاميذ أحكام التجويد مشافهة، من: الإظهار، والإدغام والإخفاء، والإقلاب، والغنة، والقلقلة، والجهر، والهمس، وغيرها من أحكام الحروف وصفاتها ومخارجها، دون أن يُصرّح بذلك، وعلى الطالب أن ينصت جيدا إلى شيخه، ثم ينطق الكلمة تماما كما سمعها من الشيخ، ولا يزالون يوالون حفظ سور

1. ينظر: أعمال ندوة الكاتيب والزوايا: 376.

القرآن الكريم سورة سورة، وعادة يُلقَّن التلميذُ سورة الفاتحة أولاً، ويتقنها حفظاً وقراءةً وكتابةً، ثم يبدأ في الكتابة والحفظ صعوداً، فيكتب سورة الناس ويحفظها، ثم الفلق، ثم الإخلاص... وهكذا؛ حتى يصل إلى مرحلة الختم الكامل لكتاب الله العزيز، وقد يقام حفل تكريم لكل من يحفظ القرآن الكريم كاملاً، ويتم إشهارة في القرية.

وبذلك تمثلت عناية الزوايا العلمية، والمدارس الدينية في بلادنا، بتحفيظ القرآن الكريم للنائشة، بقراءة نافع بروايتها قالون وورش، وضبط قواعد التجويد وأصول التلاوة، ثم يتدرج النابهون من الطلبة إلى معرفة بقية القراءات القرآنية وتعلُّمها، وضبط الرسم القرآني، وهكذا يحفظ الطالب القرآن الكريم كاملاً كتابةً، ورسمًا، وضبطًا، ويلمُّ بالقراءات، ثم يشرع في دراسة تفسير معاني القرآن الكريم، مستعيناً في ذلك بما يحفظه من متون النحو العربي كالأجرومية والألفية، كما يدرس أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وغيرها من علوم القرآن الكريم.

### المطلب الثاني: تدريس علوم الشريعة الإسلامية:

سبقت الإشارة إلى أن من ضمن رسالة الزوايا ومهمتها في بلادنا، الحفاظ على تراث المدرسة المالكية، ومنهجها الفقهي، والعمل به في ربوع هذه البلاد خلال السنين الطويلة والعهود المتعاقبة، على الرغم من محاولات العثمانيين فرض مذهبهم الحنفي على الأقطار التي حكموها، فبقي المذهب الحنفي مذهب الدولة فقط، في شؤون القضاء وما يتعلق به. أما أحكام العبادات والفتاوى في النوازل والمعاملات الأخرى في حياة الناس فكانت وفق المذهب المالكي.

وتؤكد وثائق دار المحفوظات التاريخية في طرابلس أن العلوم التي كانت تدرّس بجامع أحمد باشا وغيره من الجوامع والزوايا الأخرى، لا تختلف كثيراً عن المقررات والكتب التي كانت تدرس في الأزهر الشريف، ومن المواد التي كانت تدرس في ليبيا علم الفقه، الذي يتناول الأحكام الشرعية المستفادة من الكتاب والسنة والإجماع والقياس؛ لتنظيم العبادات وأمور الحياة، من عقود ومعاملات وأقضية على مذهب الإمام مالك، في حين كان المذهب الحنفي هو مذهب الدولة العثمانية، وكان لا يطبق إلا في الدوائر الرسمية<sup>(1)</sup>.

1. ينظر: المجتمع الليبي: (أعمال الندوة العلمية الثانية بمركز الجهاد)، تحرير: محمد الطاهر الجراي: 588.

ولا شكَّ أنَّ ذلك راجع إلى النظام التعليمي الذي تنتهجه المعاهد الدينية والزوايا والمساجد، في مجال الدراسات الفقهيَّة، حيث تعتمد تدريس الفقه وفق المذهب المعمول به في البلاد في خطة منهجيَّة موحدة، في جميع المنارات<sup>(1)</sup>.

وقد ذكر مصطفى بن رابعة في بحث له منشور في العدد الأول من مجلة الجامعة الأسمريَّة الكتب الفقهيَّة التي كانت مقررة ومتداولة بين أهل العلم وطلابه في الزاوية الأسمريَّة، وهي: رسالة ابن أبي زيد القيرواني بشرح زروق، وشرح ابن ناجي على الرسالة، ومختصر الشيخ خليل وشروحه، وتبصرة الحكام لابن فرحون.

وقد وضعت كثيرٌ من الأنظمة العلميَّة التي تيسر للطلاب المبتدئ معرفة أحكام الفقه المالكي في إيجاز واختصار، فأصبحت تحفظ، وتستظهر عن ظهر قلب، منها: المرشد المعين، والمنظومة الرحبيَّة، ومنظومة العاصميَّة، وغيرها.

إنَّ مشايخ الزوايا والمدارس الدينيَّة وطلابها وغيرهم من سائر المعلمين والمتعلمين، لم يكونوا يرون في المذهب المالكي مجرد أصوليَّة منهجيَّة في الاستنباط والاستدلال الفقهي، ولا هو مجموعة من الأحكام الفقهيَّة التي قال بها الإمام مالك ابن أنس، ومضى عليها العلماء من بعده، متبعين ومخرجين عليها ومجدِّدين، وإتِّمَّ هو -فوق ذلك- إرث حضاري وثقافة اجتماعيَّة وهويَّة دينيَّة، على المستويين الفردي والاجتماعي، بل حتى السياسي، عبر التفاعل الفقهي في مجال التدين وإقامة المشاعر التبعديَّة<sup>(2)</sup>.

ومَّا يدل على شغف الليبيين بمذهب الإمام مالك تلك القصة التي ينقلها لنا صاحب الرياض، وحاصلها: أنَّ رجلاً من أهل طرابلس كان يألّف ابن الزيات، فرأى معه أوراقاً محوَّة، يكتب فيها كلام سخون، فسأله عنها، فأجابه بأنّه كان قد كتب فيها كلام أهل العراق (المذهب الحنفي)، ثم رأى رؤيا فسُرت له باتباع مذهب أهل المدينة، فجاء إلى سخون فسمع منه، ولم يذكر اسم ذلك الرجل<sup>(3)</sup>.

1. ينظر: دور الزوايا والمنارات الشرعيَّة في الحفاظ على منهج المدرسة المالكيَّة تدريساً وإفتاءً، لبشير عبد الله القلعي، مجلة الجامعة الأسمريَّة، العدد: (11)، السنة السادسة: 290.

2. ينظر: دليل الإمام والخطيب والواعظ، وزارة الأوقاف المغربية: 7.

3. ينظر: رياض النفوس، لأبي بكر المالكي: 374/1.

ومن ناحية أخرى فإنَّ رؤية أهل هذه البلاد وسائر بلاد المغرب العربي الكبير للمذهب المالكي، كانت رؤية شمولية، استوعبت منه قضايا العقيدة، على نحو ما استوعبت منه الفقه العملي، فاستهواهم من المذهب المالكي أنه ليس مذهبا فقهياً فحسب، وإنما هو مذهب يظهر من نصوصه حرص مؤسسه على إبراز موقفه الصريح من كبرى القضايا العقديَّة، وهو ما حدّد انتماء المذهب إلى عقيدة أهل السنة والجماعة، وقد أدرك الفقهاء المالكيون أهمية ربط المذهب المالكي بالجانب العقدي؛ تحصيلنا لعقيدة الناس أن تتسرب إليها من شبهات الطوائف الأخرى ما يفسدها، فصدّروا بعض كتبهم بمباحث العقيدة مع أنَّ العقيدة تنتمي إلى مجال معرفي آخر، وهو مجال الأحكام الأصليَّة، ونجد لذلك أمثلة واضحة في: مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني، ومقدمة منظومة ابن عاشر، وكذلك في موسوعة الإمام القراني المعروفة بالذخيرة، نجد بحثاً مطولاً، عنوانه: (كتاب الجامع)، استعرض فيه مجمل اعتقاد مالك في الله - تعالى - ، وفي الأنبياء - عليهم السلام-، والصحابة - رضي الله عنهم -، وفي التقليد في العقيدة وحكمه، وموقفه من البدع الفكرية، وعلّق القراني على هذا المبحث بقوله: "هذا الكتاب يختصُّ بمذهب مالك، لا يوجد في تصانيف غيره من المذاهب، وهو من محاسن التصنيف"<sup>(1)</sup>.

لقد اختار أهل هذه البلاد وسائر بلاد المغرب العربي، مذهب الأشاعرة في الجانب العقديّ؛ لما لمسوه فيه من حفاظ على جوهر العقيدة، وحرص على درء التشبيه والتعطيل، ولما عهدوه فيه من وسطية تتجاوز القراءة الحرفية للنصوص، وتقف دون التأويل البعيد، الذي يصادر دلالة النص الظاهرة، من غير داعٍ ملجئ إليه، وهكذا وقف الفكر الأشعري موقف الوسطية والاعتدال، من كل القضايا التي بلغ التباين فيها حد التناقض<sup>(2)</sup>.

### المطلب الثالث: فض المنازعات، وعقد المصالحات:

لم تقتصر وظيفة الزوايا - في العالم الإسلامي كافة، وفي بلادنا خاصة - على الجانب التعليمي والتعبدي والتربوي، بل تعدّى ذلك إلى المجتمع المحيط، فكان لها دورها الريادي في وسطها الاجتماعي، وهو قيامها بدور التكافل الاجتماعي، والحرص على دوام اللّمة الوطنية، وتمتين العلاقات الاجتماعية، وذلك بتدخل مشايخ الزوايا للفصل في ما قد يثور من المشاكل والنزاعات

1. الذخيرة، لشهاب الدين أحمد بن إدريس القراني، تحقيق: محمد حجي: 213/13، وينظر: دليل الإمام والخطيب

والواعظ، وزارة الأوقاف المغاربية: 4.

2. ينظر: دليل الإمام والخطيب والواعظ: 5.

بين الأفراد والجماعات في محيط الزاوية، والمناطق القريبة منها، ويكون لتدخلهم أثر كبير في تسوية الخصومات وفض المنازعات؛ نظرا لثقة الناس في شيوخ الزوايا ومقدمي تلاميذهم، وما يجسّدونه من الخلق الحسن والاستقامة الدائمة على جادة الحق والعدل في الأمور الدينية والدينية، فهم يلتجئون إليهم لفض المنازعات والفصل في الخصومات بالصلح والتحكيم، ورد المعتدي وإنصاف المظلوم، وكان المحتكمون يرضون بحكمهم، وما يرمونه من عقود المصالحات، وقد يتدخل شيخ الزاوية من تلقاء نفسه لإصلاح ذات البين، ويتدرج في ذلك من الإصلاح بين الأفراد إلى دور التوسط بين القبائل المتنازعة، لحل المشاكل التي تثار بينهم بسبب النزاع على موارد المياه، أو التعدي على حمى القبيلة، أو مراعي مواشيمهم من طرف قبيلة أخرى، أو لأخذ الثأر ومحو العار؛ لضعف هيبة الدولة، وعدم سيادة القانون في تنفيذ القصاص العادل، وإقامة الحد على المعتدي، وأحيانا يصل الأمر إلى أن يتدخل مشايخ الزوايا لتحقيق الصلح بين المتنازعين على السلطة، وهذه الجهود المبذولة لاشك أنّ لها أثرها الكبير في الاستقرار والأمن؛ واطمئنان الناس على أرواحهم وممتلكاتهم؛ لأنّه يطفىء نار الفتن والحروب الأهلية، ويحقن الدماء، ويؤلف بين القلوب المتنافرة، ويوحد الاتجاهات المتصارعة.

وهذه الحقيقة كان يدركها ويعرف جدواها مشايخ الزوايا في بلادنا، وسعوا لتحقيقها فعلا، كلُّ بطريقته، وكان للشيخ: محمد بن علي السنوسي نهج خاص وطريقة منفردة في ذلك، فقرر أن تنشأ لكل قبيلة زاوية، تكون بمثابة المركز الذي ترجع إليه، فيسهل لأهل القبيلة إرسال أطفالهم إلى الكتّيب؛ لحفظ القرآن، وتلقي مبادئ العلوم الدينية، وكذلك يلتجئون إليها لفض المنازعات التي كانت مستفحلة بين مختلف القبائل، وينجم عنها نشوب الحروب القبلية من حين إلى آخر، ممّا أدّى إلى عدم الاستقرار، وكانت حكومة ذلك العهد عاجزة عن قمعها، وفي بعض الأحيان كانت الحرب بين قبيلة أو قبائل ضد الحكومة نفسها، ولم تستطع منعها وإخمادها، والسيطرة عليها تكلفتها كثيرا من الخسائر في الأرواح والأموال، فقام شيوخ الزوايا بتسوية الخلاف، وإطفاء نار الحرب، حسبة لله تعالى، وحقنا لدماء المسلمين<sup>(1)</sup>.

ولو أخذنا الزوايا السنوسية مثلا لكيفية فض المنازعات، فهي تتمثل في أنّ شيخ الزاوية كان يتخذ مجلسا مكونا من الشيوخ والأعيان، فيدرسون القضية المعروضة عليهم للفصل فيها من كل وجوهها، فما كان يفض منها بطريقة شرعية يصدر رئيس الزاوية - التي يتولى

1. السنوسي الكبير، محمد بن الطيب الأشهب: 28.

فيها منصب القضاء - الحكم في القضية، وما كان يُفصّل بطريقة العرف المتبع والعادات السائدة، فيحسم أيضا بذلك، ومنها ما يفض بطريقتة الصلح، فيتفق المجلس على ما يجب إجراؤه، ويصبح الأمر نافذ المفعول، وكل مشكلة عويصة تحدث بين القبائل، ويخشى بسببها وقوع الفتن والفساد، يستعين رئيس الزاوية بشيوخ القبائل وأعيانها ورؤساء الزوايا، أو الزاوية المتاخمة له، ويضرب لذلك موعدا، يحدد زمانه ومكانه، وهناك يحسم من دون عناء، وما صعب من ذلك وتشعبت المداولة فيه، والأخذ والرد بين رؤساء الزاوية والشيوخ، يرفع أمره إلى إدارة الزوايا بالجغوب حيث يصدر القرار النهائي<sup>(1)</sup>.

وقد ذكر المؤرخ أحمد الدجاني أنه عثر على وثيقة مؤرخة في: التاسع من شهر رجب، سنة: 1297هـ، تتحدث عن خصام ونزاع وقع بين أهالي منطقتي: هون، وسوكنة، حيث استطاعت زاوية هون السنوسية أن تزيل الإشكال، وكانت تلك الوثيقة مقدمة من ثمانية عشر رجلاً، من أعيان هون إلى متصرف فزان، يخبرونه بانتهاء الخلاف بينهم<sup>(2)</sup>.

وسعي مشايخ الزوايا ورجالها لتمتين العلاقات الاجتماعية بين السكان، وإصلاح ذات البين، وتخفيف حدة النزعات القبلية والعصبية والجهوية، وإحلال الأخوة الإيمانية محل القبيلة والعشيرة، كان هذا الأمر غاية سامية نبيلة، سعت إلى تحقيقها الطرق الصوفية وزواياها في بلاد المغرب العربي، ومنها بلادنا ليبيا، وفي ذلك يقول حسين مؤنس: "لعب الصوفية في المغرب دورا في غاية الأهمية، تمثل في زوال العصبية القبلية وسائر الروابط الاجتماعية؛ لتحل محلها الطرق الصوفية، وعلى أيدي مقدمي هذه الطرق نال الألف البركة، التي أصبحت القوة المعنوية وبر الأمان، بالنسبة للإنسان المغربي العادي، الذي أهلكت قومه القبلية العصبية، والحروب والنظم السياسية، ولم يجد الأمان إلا في عشيرته الصوفية، التي حلت محل القبيلة"<sup>(3)</sup>.

1 - المجتمع الليبي، دراسات اجتماعية واثروبولوجية، لعبد الجليل الطاهر: 315.

2 - الحركة السنوسية، نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، لأحمد صدقي الدجاني: 239.

3 - تاريخ المغرب وحضارته، لحسين مؤنس: 88/3.

## المطلب الرابع: الجهاد المسلح دفاعا عن الدين والوطن:

إنَّ الزوايا في بلادنا - إلى جانب كونها مدارس تربوية وتعليمية وثقافية - برزت إبان حركة الجهاد ضد الطليان الغزاة، وكانت بمنزلة حصون عسكرية تعمل على تسليح منتسبيها، من أجل الجهاد والمرابطة في سبيل الله؛ لحماية الدين والوطن، وإعداد أفواج المجاهدين مادياً ومعنوياً؛ لمواجهة العدو الغاصب، ورفع معنوياتهم بتصحيح حقيقة إيمانهم، وتقوية يقينهم في الله تعالى، وتطهير النفس وتخليصها من التعلق بمتع الحياة الفانية، والرغبة فيما عند الله، مما أعده للمجاهدين في سبيله، فعندما داهم الاحتلال الإيطالي الغاشم بلادنا، ووطئت أقدامه تراب أرضنا الطاهرة، ونادى منادي الجهاد، هبَّ أبناء ليبيا للدفاع عن أرضهم وعرضهم، ورد المعتدي الغاصب.

لقد اغتَرَّ الطليان بقوتهم، وبيتوا النية على غزو بلادنا، واحتلالها ونهب خيراتها، وإذلال أهلها، ظانين متوهمين أنَّ ليبيا لقمة سائغة، لا تلبث أن تُبتلع، وقد عبر أحد أركان الحرب الإيطاليين عن الحملة التي ساقوها إلى ليبيا، بأنَّها: "نزهة بحرية"، وقدَّروا لانتهاه من فتحها (15) يوماً، وقد سمع اللورد كتشنر الانجليزي بهذا التقدير، فعده تهورا من الطليان، وقدَّر هو لاحتلال طرابلس ثلاثة أشهر، ولكنَّ الحرب استمرت لما يزيد على اثنتين وعشرين سنة<sup>(1)</sup>، ضحَّى الليبيون فيها بكل غال ونفيس، وخاضوا غمارها راضية نفوسهم بما يلاقون من القتل في سبيل الله، وبما يبذلونه من الأرواح الغالية فداءً للوطن، ولكن مضى ما قدره الله، وتغلبت القوة، وكانت الدولة للغاصبين حيناً من الدهر، وليس إلى الأبد كما كانوا يتوقعون.

وإذا ذهبنا نضرب أمثلة على ما قدمه الليبيون، في سبيل الوطن، فلا نبعد كثيراً عما نحن بصدد الحديث عنه، فكان في مقدمة صفوف المجاهدين، منتسبو الزوايا الصوفية والمدارس الدينية بشيوخها وتلاميذها، وندل على ما نقول، فقد كان لهذه الزاوية العامرة، زاوية الشيخ سيدي إبراهيم المحجوب، دورها العظيم في حركة الجهاد ضد المستعمر الإيطالي، الذي اجتاحت البلاد سنة: 1911م، فتحوّلت هذه الزاوية العتيقة، كغيرها من الزوايا إلى معسكر يجتمع فيه المجاهدون لتنظيم صفوفهم وإعداد العدة لرد العدوان،

1 - ينظر: جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، الطاهر أحمد الزاوي: 76.

وانطلقت منها أفواج المجاهدين؛ استجابة لنداء الدفاع عن الدين والوطن وتقديم التضحيات في سبيل العزة والإباء، فشارك منتسبوها من المشايخ والتلاميذ في معظم معارك الجهاد هنا في مصراته، وفي الهاني، وشارع الشط، وفي القرضابية، وفي معركة المرقب بالخميس، وغيرها كثير<sup>(1)</sup>، وتذكر الروايات المتواترة المنقولة عن الآباء والأجداد أن عدد الشهداء من ذرية الشيخ المحجوب الذين سقطوا في معارك الجهاد بلغ عددهم قرابة: (50) الخمسين شهيدا، كذلك دارت في محيط زاوية المحجوب عديد المعارك الطاحنة، منها: معركة سيدي مبارك، ومعركة سيدي المحجوب، ومعركة حوش احميدة، وغيرها، وقد كان من معالم الجهاد في هذه الزاوية أنَّ الطبل الذي يقرع عند النفير للجهاد، ويظلُّ منصوبا فوق الزاوية يُنادى به على الناس، وتعلن فيهم حالة النفير العام عند داعي الجهاد، فيهبوا للدفاع عن الارض والدين والعرض<sup>(2)</sup>.

أما ما قدّمه منتسبو الزوايا السنوسية في المنطقة الشرقية من أفواج المجاهدين، وما بذلوه من تضحيات عظيمة ضد الغزاة، فهو تاريخ مضيء مسطر بأحرف من نور، ملأ أسفارا عدة، بروايات مشهورة ما زالت تتناقلها الأجيال، وهذه إحدى الروايات المنقولة عن شاهد عيان، سمعها منه بعضُ المؤرخين، وقيدّها في الأسطر التالية، جاء فيها: "...هاجم الأسطول الإيطالي ميناء بنغازي يوم الأربعاء: 19/شوال/ 1329هـ، الموافق: 1911م، فدافع عنها أهل مع الحامية العثمانية القليلة العدد والعدد، إلى أن غلبوا على أمرهم، وبعدها بأيام قلائل جاء: (تلغراف) إلى الحكومة المحلية من وزارة الحربية التركية تأمرهم بالانسحاب إلى الداخل عند الضرورة، وتشريك السنوسيين معهم في الرأي، وكان وكيل السنوسيين - وقتئذ - في زاوية بنغازي السيد أحمد العيساوي، فأشركه متصرف بنغازي في حضور جلسات مجلس الإدارة يوميا، حسب أمر الحكومة العثمانية، وعلى أثر ذلك كتب السيد أحمد المذكور إلى جميع مشايخ الزوايا يستنفرهم للحرب على جناح السرعة، ولكن الطليان دخلوا المدينة، فاضطرت الحكومة المحلية للانسحاب بما لديها من قوة للداخل، وعلى أثر انسحاب الحكومة سلم أهل البلد، حيث لا قدرة لهم على المقاومة، وسافر متصرف بنغازي إلى الآستانة بحرا، واستعدَّ القائد التركي مع جيشه للالتحاق به براً

1 - ينظر: معارك الجهاد في مصراته، لمحمد مفتاح قريو: 13، ومعجم معارك الجهاد، لخليفة محمد التليسي: 467.

2. ينظر: ندوة الكتايب والزوايا: 140.

عن طريق مصر، إلى أن جاءه شيخ زاوية بنغازي السيد أحمد العيساوي المذكور، فأقنعه بأنه كتب إلى جميع مشايخ برقة والجبل الأخضر، وأنهم عمّا قريب يلبون النداء، وتأتي منهم النجديات من كل حدب وصوب، وما زال معه حتى أقنعه بالبقاء، ثم انطلق السيد أحمد العيساوي إلى المرج لمقابلة شيخها، فقابله السيد عمران السكوري شيخ زاوية المرج ومعه ثلاثمائة مسلح من المجاهدين، بجميع معداتهم وأسلحتهم، وهو أول جيش من السنوسيين أنجد الجيش العثماني المتقهقر، بعد عزمه على الرحيل، فشكره السيد أحمد العيساوي على إسرعه وتلبيته لنداء الوطن، وفي الحال التحق بجيشه بالقائد التركي النازل في منطقة الأبيار، ولما رأى القائد التركي أول نجدة جاءتة اطمأن، أما السيد عمر المختار فكان آنذاك ذاهباً في زيارة لبعض شيوخه بمنطقة الكفرة، ولم يبلغه أنّ الطليان هاجموا بنغازي إلا وهو في طريق العودة، فجدّ في السير إلى أن وصل إلى زاويته: (زاوية القصور)، في الجبل الأخضر، وفي الحال أعلن النفير في قبيلة العبيدات التي تقع زاويته في نطاقها، وقد وجد أمامه السيد أحمد العيساوي يتفقد أحوال أهلها، فأخبره بأنّ مشايخ الزوايا مستعدون للجهاد، وأنّ أول من وصل بالنجدة هو الشيخ عمران السكوري شيخ زاوية المرج، وتبعه الشيخ التواتي الكليلي بأهل زاويته، والشيخ حسن الغماري، والشيخ عبد الله الجيلاني، والشيخ محمد عبد المولى، والشيخ عبد الله الأشهب، والشيخ محمد علي المحجوب، والشيخ محمد علي الغماري، وغيرهم، ثم انضمّ إليهم السيد أحمد العيساوي والشيخ عمر المختار بأهل زاويته، وعددهم ألف مسلح، ثم اتفق الجميع على أن يقتربوا من العدو أكثر، فارتحلوا ونزلوا منطقة بنينة، وأخذوا يهاجمون العدو بالليل والنهار، وضيقوا عليه الخناق، وكبدوه الخسائر، وغنموا منه الغنائم الكثيرة، ثمّ تكوّن معسكر آخر للمجاهدين من شيوخ وتلاميذ زوايا منطقة درنة، ثمّ تكوّن معسكر ثالث في منطقة طبرق، وعلى هذا الأساس قامت حركة الجهاد في برقة والجبل الأخضر، واستمر الحال على هذا الترتيب، وانتظمت صفوف المجاهدين تحت قيادة شيخ الشهداء عمر المختار، إلى أن سقط شهيداً، ولاقى ربه بإحدى الحسنين، رحمه الله وطيب ثراه"<sup>(1)</sup>.

1. رفع الأستار عما جاء في كتاب عمر المختار، لمحمد الأخضر العيساوي: 15، وما بعدها.

أقول: هذا غيض من فيض مما قدّمه منتسبو الزوايا الصوفيّة والمدارس الدينيّة في بلادنا، من شيوخها وتلاميذها، من جهاد وتضحيات في سبيل هذا الوطن الغالي الذي عاشوا فيه وانتسبوا إليه وتمسكوا به، واستماتوا في الدفاع عنه، وقدموا الغالي والنفيس في سبيل حريته وسيادته، إضافة إلى ما اضطلعت به الزوايا الصوفيّة في بلادنا من وظائف سامية ومهام أخرى رائدة في المجتمع، كان جوهرها المواطن الليبيّ، من حيث تربيته، وتعليمه، والحفاظ على شخصيته العربيّة الإسلاميّة، وهويته الوطنيّة الليبيّة من المسخ والتغريب.

### خاتمة البحث: تتضمن أهم النتائج والتوصيات:

خلصت في خاتمة هذا البحث إلى تقييد بعض النتائج والتوصيات، وفق الآتي:

#### أولاً: النتائج: تمثلت في ما يلي:

1. لعبت الزوايا العلميّة دوراً رائداً في المجتمع الليبيّ، في المجالات العلميّة، فأخذت دور المدارس النظاميّة إبّان الحكم العثماني وما بعده، وهو ما ساعد في نشر العلوم الإسلاميّة والعربيّة، متمثلاً في قيامها بتحفيظ القرآن الكريم لأبناء المسلمين، وتدرّس العقيدة الأشعرية، والفقّه المالكي، وكذلك اللغة العربيّة وآدابها.
2. قامت الزوايا بأدوار اجتماعيّة خدميّة أخرى، مثل: إيواء الحجاج والمسافرين، والمنقطعين وأبناء السبيل، وفض المنازعات، وإجراء عقود الصلح بين الأفراد والجماعات في محيطها.
3. قامت الزوايا بدور كبير في إعداد المجاهدين والتصدي للغزاة، والدفاع عن الدين والوطن، والإسهام في حركة الجهاد.

#### التوصيات: يوصي الباحث بالآتي:

- أولاً: أوصي بعقد المزيد من المؤتمرات واللقاءات العلميّة، للتعريف بالزوايا الصوفيّة العلميّة ودورها في المجتمع الليبيّ، وإعادة تفعيل دورها من جديد في المجتمع الليبيّ.
- ثانياً: بعث دور الزوايا ودعمها وإحياء التدريس وفق نظام الحلقات، وتلقي العلم بالإسناد؛ حفاظاً على الأسانيد الليبيّة في الحديث الشريف، وفروع علوم الشريعة الأخرى.

ثالثاً: أوصي بضرورة إعادة تحرير البحوث المقدّمة لهذا المؤتمر، وتنقيحها بعد إثرائها بالمناقشات والمداخلات، ونشرها في إحدى المجلات العلمية المحكمة؛ لتوسيع قاعدة القراء، وتعميم النفع بها بين الأكاديميين والمهتمين.

وختاماً: هذا ما تيسّر إيراده، وتهياً إعداده، والحمد لله الذي بفضلله تمّ الصالحات، وأسأل الله العظيم باسمه الأجل الأكرم أن أكون قد وفّقت في تغطية مباحث هذا الموضوع، وتحرير مسأله، وأرجو أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينتفع به من اطّلع عليه، إنّه سميع قريب مجيب الدعاء.

### قائمة المصادر والمراجع:

1. بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني، لعلي بن يوسف الشطنوفي، دراسة وتحقيق: جمال الدين فالح الكيلاني، الطبعة: الثانية، 2013م، منشورات المنظمة المغربية للتربية والثقافة والعلوم، فاس.
2. تاريخ أفريقيا في العهد الحفصي، لروبار برنشفيك، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
3. تاريخ المغرب وحضارته، لحسين مؤنس، (د. ط): 1992م، بيروت.
4. تطور التعليم في ليبيا في العصور الحديثة، لرأفت غنيمي الشيخ، ط/1: 1972م، مطبعة دار الحقيقة، بنغازي.
5. جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، للطاهر أحمد الزاوي، الطبعة: الثالثة: 1984م، الناشر: دارف المحدودة، المملكة المتحدة، لندن.
6. الجواهر الإكليلية في أعيان علماء ليبيا من المالكية، لناصر الدين محمد الشريف، الطبعة: الأولى: 1420هـ: 1999م، دار البيارق، الأردن.
7. حادي العقول إلى بلوغ المأمول، لأحمد بن محمد بن حمادي، تحقيق: جمعة محمود الزريقي، الطبعة: الأولى: 1998م، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس.
8. الحركة السنوسية: نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، لأحمد صدقي الدجاني، ط/1: 1967م، دار لبنان.

9. الحياة العلمية في الجبل الغربي، لعبد الحميد الهرامة، مجلة البحوث التاريخية، العدد: الأول: يناير: 1984م.
10. دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة: نخبة من أساتذة الجامعات المصرية والعربية، الطبعة الأولى، 1418هـ: 1998م، منشورات مركز الشارقة للإبداع الفكري.
11. دليل الإمام والخطيب والواعظ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية: 1427هـ: 2006م.
12. دور الزوايا والمنارات الشرعية في الحفاظ على منهج المدرسة المالكية تدريسا وإفتاءً، لبشير عبد الله القلعي، مجلة الجامعة الاسميّة، العدد: (11)، السنة: السادسة: 2009م.
13. الذخيرة، لشهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق: محمد حجي، (د. ط): 1994م، بيروت.
14. رحلة التيجاني، لأبي محمد عبد الله بن محمد التيجاني، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، (د. ط)، (د. ت): دار العربية للكتاب.
15. رفع الأستار عما جاء في كتاب عمر المختار، لمحمد الأخضر العيساوي، الطبعة: الأولى: 1355هـ: 1936م، مطبعة حجازي، القاهرة.
16. رياض النفوس، لأبي بكر عبد الله المالكي، تحقيق: بشير البكوش، (د. ط)، (د. ت)، منشورات دار الغرب الإسلامي.
17. سلطان الأولياء عبد القادر الجيلاني، لأحمد الزوي، منشورات زاوية سيدي نصر القادرية، الطبعة: الأولى: 1999م، طرابلس.
18. السنوسي الكبير، لمحمد الطيب بن إدريس الأشهب، (د. ط): 1956م، القاهرة.
19. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد بن محمد بن مخلوف، علق عليه: عبد الحميد خيالي، الطبعة: الأولى: 1424هـ: 2003م، دار الكتب العلمية، لبنان.
20. طبقات الأولياء، لسراج الدين عمر بن علي الشافعي المصري، المعروف بابن الملقن، تحقيق: نور الدين شريفة، الطبعة: الثانية، 1415هـ: 1994م، مكتبة الخانجي، القاهرة.
21. الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر، لصلاح مؤيد العقي، (د. ط): 2002م، دار

البراق، بيروت.

22. الكتايب والزوايا وأعلام تحفيظ القرآن الكريم: (الندوة العلمة الرابعة)، الطبعة: الأولى: 2009م، منشورات مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية.

23. المجتمع اللبي في العهد العثماني، لتيسير بن موسى، (د. ط): 1988م، الدار العربية للكتاب، طرابلس: ليبيا.

24. المجتمع اللبي: (أعمال الندوة العلمة الثانية بمركز الجهاد)، تحرير: محمد الطاهر الجراي.

25. المجتمع اللبي، دراسات اجتماعية واثروبولوجية، لعبد الجليل الطاهر، (د. ط): 1969م، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا: بيروت.

26. معجم البلدان اللبية، للطاهر أحمد الزاوي، ط/1: 1388هـ: 1968م، مكتبة النور، طرابلس: ليبيا.

27. معارك الجهاد في مصراته زمن الحروب الإيطالية، لمحمد مفتاح قريو، الطبعة: الأولى: 1994م، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، مصراته.

28. معجم معارك الجهاد في ليبيا: (1911 - 1931م)، لخليفة محمد التليسي، (د. ط): 1983م، الدار العربية للكتاب، طرابلس: ليبيا.

29. المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفى وآخرين، دار الدعوة، منشورات مجمع اللغة العربية، القاهرة.

30. المنارات الشرعية ودورها في ترسيخ الإسلام وتحصين الشباب، لبشير عبد الله القلعي، مجلة الأسمرية، العدد: الخامس: 2005م.

31. منح رب العالمين في مناقب شيخنا الأمين، لأحمد محمد بن حمادي، دراسة وتحقيق: بشير عبد الله القلعي: (رسالة ماجستير غير منشورة).

32. نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقرئ التلساني، تحقيق: د. إحسان عباس، (د. ط): 1388هـ، دار صادر: بيروت.